مخطوطات حلب

... قد يطول الحديث عن المكتبات القديمة في حلب - عن الخزائن المنتشرة في أروقة الجوامع والمدارس الدينية .. إنها كثيرة .. تضمّ مئات الكتب المخطوطة بل الآلاف ... وهنالك .. امتدّت إليها أيدي العابثين فانتقلت من مقرّها إلى شتى مكتبات العالم .. ولم يبق من هـذا العدد الوفير غير خمسة أو ستة آلاف مخطوط قامت « دار الكتب الوطنية » بجمع ما تفرق منها في المدارس والجوامع ، وكتاب فهارسها .. ثم سلمتهـا إلى مكتبة الأوقاف الإسلامية في قصة وظروف ليس هنا مجال سردها ..

وعناية حلب بدور الكتب جدّ قديمة ..

فمنذ عهد سيف الدولة أو قبله إلى يومنا هذا ، وهذه العناية لم تنقطع .. توارثها الأبناء عن الأجداد حتى كان البعض يعتبرها حلية من حلى البيوت والقصور .. وكان يفاخر الرجل إذا وقف طائفة من الكتب على مدرسة ما ليفيد منها طلاب العلم - فيعتبرها من أمتع وأثمن هداياه ..

يقول الحافظ الذهبي في تاريخه :

« ... إنه كان في خزانة الكتب بحلب عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة بن حمدان وغيره ... » .

وكرّت الأيام وتعـاقبت العصور وخزائن الجوامع والمدارس وبيوت العلماء تزداد أو تنقص حين تنقضّ عليها الأيدي العابثـة .. إذ لم تكن المكتبات تخضع في الماضي لهذه الأنظمة التي نعرفها اليوم ..

كانت مفتحة الأبواب يغرف منها الطالب ما يريد . والمفروض أن يعيد الكتاب بعد أن يفرغ من مطالعته والإفادة منه إلى مكانه كما توجبه الأمانة العلمية . . ولكنه يهمل ذلك .. أو يعيره لصديق له كأنه ملكه . أو ـ وهذا الأرجح ـ يضنّ أن يخرج من حوزته فيضمّه إلى مكتبته ، ولا يتورع بعض هواة الكتب أن يستبيحوا ما طاب لهم من ثمرات تلك المكتبات الزاخرة بفنون المعرفة بدعوى أنهم أحق بها من غيرهم . . .

ففي تاريخ ابن خلكان . في ترجمة أبي السعادات المعروف بالمسعودي : انه لما دخل السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى حلب سنة ٥٧٩ هـ نزل المسعودي إلى جامع حلب ، وقعد في خزانة كتبها الموقوفة ، واختار منها جملة ، لم يمنعه منها مانع ..

ولقد رأيته ـ والكلام هنا لأبي بركات الهاشمي ـ قال : لقد رأيته وهو يحشوها في عِدل ... ! [1]

ويعقّب المؤرخون على هذه الحادثة بأن السلطان صلاح الدين مؤاخذ لعدم ردعه للمسعودي عن أخذه هذه الكتب ! ..

وبعد المسعودي جاء كثيرون إلى حلب ولا سيما المستشرقون الذين ابتاعوا من المتولّين الكثير من النفائس التي نقلت بالسرّ أو بالعلن ، إلى شتى مكتبات الغرب .. ولهذا حديث فيما بعد ..

* * *

لقد عرفت حلب ، بين المدن الإسلامية الكبرى ، بوفرة مكتباتها المليئة بنفائس المخطوطات ، وسببه حرص الأجداد على اقتناء ذخائر الكتب حرصاً يدعو إلى العجب . . .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص (٥٢٠) المطبعة الميمنية ١٣١٠ هـ .

فمن الحكايات اللطيفة التي ترينا مدى هذا الحرص القصة التي يرويها الصلاح الصفدي عن الوزير جمال الدين القفطي قال :

« انه وقع له نسخة من كتاب الأنساب لابن السمعاني بخطه ، ينقصها مجلد من أصل خمسة ، فلم يزل يبحث عنه ، ويطلبه من مظانّه دون أن يظفر به .

« ثم جاءه أحد أخصّائه وأخبره أنه اجتاز سوق القلانسيين الذين يعملون القلانس ، فوجد أوراقاً منه ، وأحضرها إليه ، وذكر القصة فأحضر الصانع وسأله عنه فقال :

اشتريته في جملة أوراق .. وعملت قوالب للقلانس . !

فحدث عنده من الهم والغم والوجوم ما لا يمكن التعبير عنه ، حتى إنه بقي أياماً لا يركب إلى القلعة ، وقطع جلوسه ـ أي استقبال الناس ـ وأحضر من ندب على الكتاب كما يندب على الميت المفقود المؤيس منه .. وحضر عنده الأعيان يسلّونه كما يسلّى من فقد له عزيز .. ! ..

ولا غرابة أن يحزن هذا القاضي العالم الذي كانت له مكانته السامية أيام الملك الظاهر . والذي تولى الوزارة فلقب بالوزير الأكرم في أيام الملك العزيز ـ لا غرابة أن يحزن على فقد كتاب هذا الحزن الأليم ، فقد كان من أوفى الناس للكتاب ، جمع من الكتب ما لا يوصف ، وقصد بها من الآفاق ، إذ كان لا يحب من الدنيا سواها ، ولم يكن له دار ولا زوجة . وأشار المؤرخون إلى مكتبته التي اعتبروها من أندر المكتبات التي تساوي خمسين ألف دينار ـ أوصى بها بعد مماته ، للناصر صاحب حلب .

ويعلم القراء أن جمال الدين القفطي « ٥٦٨ — ٦٤٦ هـ » قد صنف عدة كتب أشهرها « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » و « إنباه الرواة على أنباء النحاة » و « الدر الثمين في أخبار المتيّمين » و « أخبار مصر » في ستة أجزاء و « بقية تاريخ السلجوقية » .. وغير ذلك من المصنفات النفيسة ..

فمكتبة عالم واحد قدّرت قيمتها بخمسين ألف دينار .. فما ثمن مكتبات جهابذة العلماء الذين عاشوا في حلب وتركوا آلاف المخطوطات. وأكثرها بخطوطهم!

* * *

ويروي الشيخ كامل الغزي مؤلف كتاب « نهر الذهب في تاريخ حلب » عدة قصص في ولع الحلبيين بالكتب ، وعن اللصوص الذين امتدت أيديهم إلى هذه الذخائر فيقول :

« .. إن ولع الحلبيين باقتناء الكتب كان ولم يزل غريزة فيهم ، فقد أدركنا الكثيرين من علماء حلب وأغنيائها من هو شديد العناية باقتناء الكتب المخطوطة النادرة حتى انهم كانوا يتسابقون إلى اقتنائها ويبذلون الأموال الطائلة في استنساخها ..

« أدركنا منهم من استكتب كتاب « تاج العروس » للزبيدي شرح قاموس الفيروزابادي فصرف عليه نحواً من مائتي ذهب عثماني ، إلى غير ذلك من الكتب الكبيرة التي كان أغنياء الحلبيين يتسابقون إلى اقتنائها » .

ثم يقول :

« أدركنا في مدينة حلب عدة مكتبات غنية بالكتب المخطوطة النادرة قد تسلط عليها لصوص الكتب فسلبوها كل ما حوته من الطرف والتحف . واننا منذ زمن الصبا حتى الآن - نرى تجار الكتب المخطوطة يترددون إلى حلب ويملأون من مكتباتها الصناديق الكثيرة عدا ما نراه من سواح الغرب وسماسرة المستشرقين الذين يختطفون الكتب النفيسة الخطية من أيدي طائفة من البسطاء لا يفرقون بين الطين والعجين ، فيشترونها منهم بأبخس الأثمان .

« وإني على يقين من أن مدينة حلب ما زال يوجد فيها العدد العظيم من الكتب الخطية النادرة التي إذا بحثت عنها وجدتها في زوايا الإهمال والنسيان

في بيوت جماعة من جهلة العامة قد هبطوا من أصلاب رجال كانوا يعدّون من نبغاء العلم والأدب فخلف من بعدهم خلف أهملوا العلم وركبوا متن الجهل وباعوا ما كان في خزائن أسلافهم من الكتب والأسفار ، وبقي عندهم منها بقية عدّوها من سقط المتاع حتى إذا لفتتهم إليها الصدف حملها واحد من أطفالهم أو واحدة من عجائزهم وقصد بها باعة الكتب أو السوق العامة المعروفة بسوق الجمعة حيث تباع السلع الرخيصة فيبيعون منها ما قيمته بألف قرش مثلاً بنصف قرش .

« من الصدف الغريبة التي صادفتها أنني بقيت مدة طويلة أبحث عن كتاب « كنوز الذهب » فلم أظفر به ، ومضى على ذلك أعوام ، وقد يئست من الظفر به . إلى أن كنت يوماً من الأيام ماراً في سوق من أسواق حلب إذ أبصرت بامرأة عجوز يدل إزارها على فقرها وفي يدها كتاب يلوح عليه القدم ، فاستوقفتها وقلت لها ما هذا الكتاب ؟ أجابتني بقولها « قصة حلب » فتناولته من يدها وسرعان ما فتحته وقرأت من خطبته سطوراً ، فإذا هو ضالتي المنشودة « هو كتاب كنوز الذهب » بخط مؤلفه . فقلت لها : بكم تبيعينه ؟ قالت : دفع إلي به بايع الكتب خمسة قروش وأنا لا أبيعه إلا بعشرة قروش ، فنقدتها عشرة قروش ، وأخذت منها الكتاب ، ولو أنها طلبت مني ثمنه ألف قرش لما استكثرتها .

ثم يتحدث عن المكتبات التي فقدت فيقول :

« أما المكتبات المفقودة في حلب ، وكانت على جانب عظيم من الغنى فهي مكتبة بني الشحنة ، ومكتبة بني العديم ، ومكتبة بني الخشاب ، وغيرهم من الأسر العلمية التي كانت تعدّ من أجلّ بيوتات العلم في حلب . ومن تلك المكتبات مكتبة الجامع الكبير ، ومكتبات المدارس الكبرى ، كالمدرسة السلطانية والصرونية والحلوية والشرقية والرواحية ، فإن جميع هذه المكتبات

فقدت برمتها في حادثة تيمورلنك . فمنها ما استأثر به تيمورلنك واتباعه ، ومنها ما انتهبته العامة أثناء تلك الحادثة وطرحوه في زوايا بيوتهم ثم باعوه بأبخس الأثمان (١) .

* * *

شهرة مخطوطات حلب دفعت بعض المستشرقين أن يؤموا المدينة للبحث عن هذه الذخائر . ولعل أول مستشرق قصد حلب وغرف الكثير الكثير من مخطوطاتها قسّ انكليزي جاء مع الوكالة التجـــارية الانكليزية The English Factory قبل نيّف وثلاثمائة سنة (٢) .

لقد أحب هذا القسيس الشاب الشرق بعد أن اطلع ، وهو تلميذ ، على بعض الكتب الدينية وغيرها التي تتحدث عن الشرق ، وكان مدرساً للتوراة في « كورب كريستي كوبليج ـ مدرسة جسد المسيح » حيث حصل سنة ١٦٢٤ على شهادة الماجستر ، وأخذ مبادئ العربية على البروفسور ماتياس باسورا الألماني ، ثم اتصل بوليم بيدويل ، أكبر علماء الانكليز بالعربية آنئذ . وهو الذي أصدر أول ترجمة انكليزية للقرآن الكريم ، والذي كان يصف اللغة العربية بأنها اللغة الوحيدة للدين . واللغة الرئيسية للسياسة والعمل من الجزائر السعيدة إلى بحار الصين .

حين وصل هذا القس إلى حلب أخذ يبحث عن أستاذ ضليع في اللغة العربية ليتتلمذ عليه .. ولم يطل بحثه ، فسرعان ما وقع اختياره على عالم من كبار العلماء ومن أئمة البيان وهو الشيخ فتح الله البيلوني .. فتتلمذ عليه ، وبدأ يلازمه صبح مساء ، وظلّ يقرأ عليه ويأخذ عنه مدة خمس

---

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ج ١ ص ١٦٩ ـ ١٧١ .

(٢) كانت الوكالة الانكليزية مؤلفة من قنصل وأربعة تجار وقسيس وطبيب وحاجب ، وهي أول بعثة أجنبية تؤسس في حلب في بداية سنة « ١٥٨١ م = ٩٨٩ هـ » .

سنوات كاملة إلى أن استطاع أن يحذق الفصحى بعد أن حذق « العامية » من أفواه الحلبيين .

وكان لابد له من مراجع للاستزادة من علوم العربية ، وكانت خزانات الكتب مفتوحة لكل طارق ، فكان يؤمها بصحبة أستاذه أو وحده بعد أن يؤذن له بدخول الجوامع والمدارس ، وقد هاله أن يرى علوم الشرق مبثوثة في هذه الكتب . . وازداد تردداه ، وكثيراً ما كان يقضي النهار كلّه في القراءة والنسخ . .

إنه إزاء ثروة لا تقدر بثمن . . فتحلّب ريقه . . فلم يكد يهمّ بالعودة إلى وطنه حتى امتدت يده إلى ما يقرب من ألفي مخطوط !

لم يكن هذا القسيس الذي أخذ ثقافته العربية عن مخطوطات حلب سوى المستشرق الانكليزي الشهير ادوار بوكوك .

يقول الدكتور ج . أ . أربرى مؤلف كتاب « المستشرقون البريطانيون » في صدد كلامه عن بوكوك أنه في أثناء السنوات الخمس التي عاشها في حلب جمع مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية تكوّن الآن قسماً من أثمن محتويات المكتبة البودلية — نسبة إلى أستاذه وليم بيدويل مترجم القرآن الذي أهدى مكتبته إلى جامعة اكسفورد .

ويقول برنر لويس في كتابه « مساهمة البريطانيين في الدراسات العربية » وهو يعرض إلى مخطوطات حلب التي نقلها أدوار بوكوك :

« . . قد اقتنى مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية عاد بها إلى اكسفورد ، فأنقذها من الدمار الذي كان من المحتمل أن يحل بها » !

أنقذها من الدمار الذي كان من المحتمل أن يحل بها . .

لقد استوقفتني هذه الجملة كثيراً . . « ففيها تنطوي كل هذه الفوارق بين الشرق والغرب . . بين حرصه على مثل هذه الكنوز وبين تهاوننا في الحفاظ عليها ! »

وهذه المخطوطات التي تحمل بين صفحاتها علوم الأولين من فلسفة ومنطق وفلك وتاريخ وشعر وأدب — لم تكن في نظر بعض شيوخنا الأجلاء إلا تخرصات أولى بها القمامات أو ألسنة اللهب ! فالجهالة الطاغية من روح العصر في تلك الفترات السود لم تكن لتعطي أهمية بالغة لمثل هذه الكنوز التي كانت مبعثرة هنا وهناك ، غير معتنى بها ، كما قلت ، لا يلتفت إليها إلا بعض كبـــار المدرسين الذين كانوا لا يهتمون أيضاً إلا بكتب الفقه والتفاسير . . أما بقية كتب الأدب والحكمة والشعر والرياضة والفلسفة والمنطق ، فكانت في نظرهم أضاليل وتخرصات وهي اليوم لا تقدر بثمن ، ومرجع وثيق لفطاحل مؤلفي الغرب والشرق .

* * *

حين رجع ادوار بوكوك إلى وطنه رجع مزهواً بعمله وبما حمله من كنوز . وقد استقبلته لندن كرجل مغامر ، والسفر إلى الشرق في تلك الظروف لون من المغامرة ، فما كاد يستقر به المقام وينفض عنه أعباء السفر ، ويعرض هذه الكنوز التي حملها معه على زملائه وأساتذته حتى أخذت شهرته تستفيض ، وإذ كان من خريجي اكسفورد ومن حملة شهادة الماجستر فقد أسند إليه في ١٠ آب سنة ١٦٣٦ المنبر الجديد لأستاذية اللغة العربيـة ، فحاضر في الأدب والنحو ، وكانت أولى محاضراته عن بلاغة الإمام علي وكلماته ، وقد طبعت هذه المحاضرة سنة ١٦٦١ م ، وأقبل على محاضراته لا طلاب الجامعة فقط بل أكثر المتخرجين من الجامعة ، وبالأخص زملاؤه في التدريس .

وفي ختام السنة الدراسية قام برحلة ثانية إلى الشرق مع وليم جريفستر المستشرق البريطـاني المختص بشؤون الفلك والذي كان يجيـد العربيـة والفارسية معاً .

وقد سافرا إلى تركيا وأقاما في استانبول حتى سنة ١٦٤٠ م ، وكان لابد لادوار پوكوك وقد وصل إلى الشرق من زيارة حلب التي كان لها أثر غير قليل في تكوين شخصيته الأدبية ، وربما كانت حلب ، هي قصده من هذه الرحلة ، و « مخطوطاتها » هي السبيل ! واستطاع في هذه الرحلة أيضاً ، أن يجمع أنفس المخطوطات وأندرها ، ويعود إلى وطنه لينصرف إلى البحث العلمي ونشر المخطوطات ، فنشر كتاب « الحضارة العربية » وهو مقتبس من كتاب « مختصر الدول » لأبي الفرج ابن العبري وقد صدر سنة ١٦٤٩ م ، وكتاب « المختار من تاريخ العرب » الذي يعتبر أول نص عربي طبع في اكسفورد ، وقد عرض في هذا الكتاب إلى نشأة العرب وعاداتهم وآدابهم ودياناتهم ، وكتاب « مختصر التاريخ العام » لابن البطريق سنة ١٦٥٨ م ، وترجمة « معجم الأمثال الميداني » ولامية العجم وهي دراسة نقدية لقصيدة الطغرائي ، تصحبها ترجمة وتفاسير وافية وقد طبعت سنة ١٦٦١ م ، ومقالة عن مزايا القهوة من كتاب طب عربي نشرت سنة ١٦٥٩ م [١] .

وغير ادوار پوكوك كثيرون . ولا شك أن رحلة پوكوك أثارت الكثير من المستشرقين منذ تلك الفترة إلى بداية القرن العشرين فكانت حلب من المدن التي غزوها وامتدت أيديهم إلى مخطوطاتها . .

* * *

كتب إليَّ المرحوم الأمير مصطفى الشهابي قبل بضع سنوات أن أبحث له عن كتاب « النبات » لأبي حنيفة الدينوري – وهو من مخطوطات المكتبة

---

(١) من قصص الصلات بين الشرق والغرب : بحث لسامي الكيالي في كتابه « من خيوط الحياة . . » ، المستشرقون البريطانيون للدكتور ا . ج . اربري ، المستشرقون لنجيب عفيفي .

الأحمدية - وأقوم بهذه المهمة بكثير من الارتياح . . وأراجع فهرس المكتبة فأجد الكتاب مدوّناً . . وأطلبه فلا أجده . . وأفهم من الثقات أن أحد المتولين على وقف الجلبي قد باعه إلى مستشرق هولندي بثمن بخس ، بليرة عثمانية ، ويقدر الخبراء ثمنه بأكثر من أربعمئة ليرة عثمانية ذهبـــاً . لأن الكتاب بخط المؤلف ، ومصوّر ، فما من زهرة أو نبتةٍ إلا وقد رسمت بلونها الطبيعي .

والدينوري « ... — ٢٨٢ هـ » كما يقول ياقوت عنه - من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له في كل فن ساق وقـــدم ، ورواء وحكم . أما كتابه في « النبات فكلامه فيه ، في عروض كلام آبدي بدوي ، وعلى طباع أفصح عربي » .

* * *

هذا ، وقبيل الحرب العالمية الأولى وفي سنة ١٩١١ م على الأرجح امتدّت يد الشيخ . . . . إلى مخطوطات حلب فجمع عدة صناديق ، وبعد أن أصبحت في حوزته خلال أعوام اتصل بكتبي شهير في القاهرة يتاجر بالمخطوطات . وهو حلبي الأصل — فعرض عليه الفهرس وبعد أن اطلع عليها اتفقا على السعر وتمت الصفقة بمئة ألف قرش ذهباً - ألف ليرة افرنسية - دفع منها خمسمائة ليرة سلفاً وكتب بالباقي سفاتج - كمبيالات . . .

وشحنت الكتب إلى القاهرة ، وعرضها الكتبي على « الكتبخانة المصرية - دار الكتب اليوم » ، وبعد أن اطلعت الهيئة المكلفة بفحص المخطوطات - على الفهرس قرّرت ابتياعها بأي ثمن بالنظر لندرتها ولقيمتها العلمية . .

وخلال فتح الصناديق والمباشرة بعملية الاستلام لوحظ أن أوراقاً سميكة - من الورق العبادي - ملصقة على الصفحات الأولى . . ويُسأل الشيخ صاحب الكتب عن الأمر فيحير جواباً ثم يقول إنها ملصقة لحفظ الكتاب

من التلف ! . . ونلاحظ الهيئة أن أكثر من مخطوط بهذا الشكل مما أثار ريبتها وشكوكها ! وجاء أحد المختصين باسفنجة مبلولة وأزال الورقة بحذق . . وظهر اسم الكتاب ومؤلفه ، وأنه وقف ، مع تحذير شديد من سرقته أو بيعه ! . .

ويفتح كتاب ثان وثالث ورابع وإذا كلها من الكتب الموقوفة . . وهنا توقفت دار الكتب عن الشراء ، وقررت أن تخبر السفير التركي بالأمر ، باعتبار أن السرقة من حلب ، وحلب من الممالك العثمانية ـ فهلع البائع والكتبي الذي دفع نصف ثمنها سلفاً ، وهو مبلغ غير قليل ، فما كان منه إلا أن لجأ إلى صديقه أحمد زكي باشا ـ شيخ العروبة ـ وهو سكرتير مجلس النظار ، فتدخل في الأمر ، وأفهمهم أن الكتبي لا ذنب له ، وأن حجز الكتب خراب بيته ، وبعد مفاوضات طويلة سلمت إليه . . وما هي فترات ، . وبعد أن خمدت الضجة نقلها الكتبي إلى الاسكندرية حيث عرضها على القومسيون البلدي الذي ابتاعها لمكتبة الاسكندرية بألف ليرة افرنسية ذهباً . . ولا تزال هذه المخطوطات الحلبية في مكتبة بلدية الاسكندرية .

* * *

وقد ظلت قصة هذه السرقة تردد ، منذ نيف ونصف قرن ، في البيوتات الحلبية العريقة ، ويتداولها الشيوخ والعلماء الذين لا يزالون يلعنون ذلك الشيخ الذي أقدم على هذه الفعلة الشنعاء ، وقد كان من أمره ، بعد هذه الفضيحة ، وبعد أن أصبح مضغة الأفواه ـ أن هجر المدينة وعاش بقية أيامه في الأرياف ! .

وأقف عند هذا الحد من روايات المؤرخين والثقات عن مخطوطات حلب التي لا يمكن إحصاء عددها الوفير . . فمنذ عهد الأمير الحمداني الذي قدرت مكتبته التي وقفها بعشرة آلاف مخطوط . . إلى كتب جهابذة اللغة والأدب

والشعر وأساطين العلماء والفلاسفة وغيرهم من رجال الفكر الذين عاشوا في ظلاله .. إلى المخطوطات التي عدا عليها تيمورلنك .. إلى مكتبة الوزير جمال الدين القفطي التي قدرت بخمسين ألف دينار ، إلى مكتبات ابن الشحنة وابن العديم وابن الخشاب وغيرهم وغيرهم من أصحاب المواهب الذين دونوا وألفوا وكانت لهم مكتباتهم الخاصة ، والذين عاشوا في مملكة حلب على مر العصور .. إلى المخطوطات التي امتدت إليها الأيدي العابثة من المستشرقين ومن غير المستشرقين ـ نعم ، لا يمكن إحصاء عددها الوفير ، ولا علينا أن نفترض ـ ولا مجال للمبالغة ، أن عددها قد جاوز المائة ألف مخطوط ولم يبق منها غير بضعة آلاف ذهب أنفسها وأندرها إلى مكتبات لندن وليون وباريس وبرلين وغيرها من مدن الشرق والغرب .

* * *

وبعد فأشعر أن الحديث لم ينته ، وسأعقبه بحديث آخر عن المخطوطات الباقية ، والتي هي الآن في حوزة مكتبة الأوقاف الإسلامية وتضم على قلتها الكثير من النفائس ..

سامي الكيالي